المحاضرة السابعة: الأغاني الشعبية ومجالاتها.

تمهيد:

تعد الأغنية الشعبية من أكثر الأجناس الأدبية الشعبية انتشارا وتداولا بين أفراد الجماعات الشعبية لتميزها بجملة من الميزات جعلتها مرآة عاكسة لعاداتهم وتقاليدهم وثقافتهم، فهي تختلف عن غيرها من الأجناس الأدبية الشعبية في كونها تعبر عن طريق الكلمة واللحن معا، ولا يجوز الفصل بينهما وإلا تحولت إلى شعر شعبي فقط، لذلك يستوجب دراستها بشقيها: الموسيقى من طرف المختصين في الموسيقى عامة والموسيقى الشعبية خاصة أما الشق الكلامي؛ فيدخل في اختصاص أصحاب الدراسات الفلكلورية والاجتماعية[1].

أولا ـ مفهوم الأغنية الشعبية:

إن كثرة المفاهيم التي قدمت للأغنية الشعبية وتداخل بعضها، واختلاف البعض إلى درجة التناقض خلق تشويشا وغموضا في أذهان كثير من الباحثين، مما ألجأ البعض منهم إلى التفرقة بين الأغنية الشعبية الفلكلورية والأغنية الدارجة الشائعة، والحال أن في هذه التفرقة بعدا عن الواقع، لصعوبة أو استحالة وضع حدود فاصلة بينهما، لذلك نرى أن من الأفضل الاحتكام إلى عنصري: الشيوع والذيوع والعراقة والقدم لاعتبارها أغنية الشعبية، ذلك أن معظم الأغنيات ـ إن لم نقل كلها ـ التي اعتبرها الباحثون أغاني شعبية كانت في الأصل أغاني دارجة كما هو واضح[2].

يعرف "فوزي العنتيل" الأغنية الشعبية بأنها ((قصيدة غنائية ملحنة مجهولة النشأة، بمعنى أنها نشأت بين العامة من الناس في أزمنة ماضية، وبقيت متداولة أزمانا طويلة))[3]، أما "ألكسندر هجرتي كراب" فهو يعرفها بأنها ((قصيدة شعرية ملحنة مجهولة المؤلف، كانت تشيع بين الأميين في الأزمنة الماضية، وما تزال حية في الاستعمال))[4]، وهو بتعريفه هذا يذهب إلى ما ذهبت إليه المدرسة الرومانسية، التي اعتبرت أن أي أغنية شعبية يفترض أن تكون مجهولة المؤلف، لأنها من صنع الشعب ((فعدم نسبة الأغنية إلى مؤلف معين دليل على خلقها التلقائي من قبل جماعة سرية دونما فردية أو وعي))[5]، ويعرفها "أحمد مرسي" بقوله: ((الأغنية الشعبية هي الأغنية المرددة التي تستوعبها حافظة جماعة، تتناقل آدابها شفاها، وتصدر في تحقيق وجودها عن وجدان شعبي))[6].

كما يعرفها "عبد القادر نطور" بقوله: ((الأغنية الشعبية هي التي تتواتر شفاها بين أفراد الجماعة مكتسبة صفة الاستمرار لأزمنة طويلة وليست بالضرورة مجهولة المؤلف، كما أنها في رحلتها الطويلة عبر الأجيال قد

---

[1]ـ نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، ص 323.

[2]ـ مجدي محمد شمس الدين، الأغنية الشعبية بين الدراسات الشرقية والعربية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر، 2005، ص 28.

[3]ـ فوزي العنتيل، الفلكلور والثقافة الشعبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1978، ص 247.

[4]ـ ألكسندر هجرتي كراب، علم الفلكلور، تر: أحمد رشدي صالح، دار الكتاب، القاهرة، مصر، 1967، ص 236.

[5]ـ أرنولد هاوزر، فلسفة التاريخ والفن، تر: رمزي عبدة، دار الحقيقة، مصر، 1980، ص 299.

[6]ـ أحمد مرسي، الأغنية الشعبية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، مصر، 1968، ص 132.

يتناولها التعديل والتغيير بالزيادة والنقصان، أي أنها إبداع جمعي وفني مأثور، وتتوسل بالكلمة واللحن والإيقاع))[7]، أي أنها تتميز بالنغمة واللحن، مما يجعلها تنتشر وتتغلغل داخل المجتمعات الإنسانية، حتى أنه يقال عنها بأنها "واحدة من أعظم الغاز التجربة الإنسانية"، فبدون الموسيقى تصبح الأغنية الشعبية خالية من تلك التقاليد التي تحكم وجودها فاللحن يضيف الكثير من الدلالات إلى كلماتها، ويزيد من تأثيرها ويعمقّه، مع انه لحن بسيط يستخدم عددا من النغمات الموسيقية البسيطة التركيب، تناسب خبرة المجتمع ومعرفته الموسيقية.

ثانيا ـ نشأة وتطور الأغنية الشعبية:

الأغنية الشعبية من الفنون التي تطورت مع تطور الرقص والطقوس، والتي ارتبطت منذ البداية ((بعالم العقائد والطقوس والتي خدمت بالدرجة الأولى إشباع الحاجات الاجتماعية والنفسية والروحية... ولا تتوقف على المواضيع الروحية فحسب بل تمتد إلى المواضيع الدنيوية والمحرمة))[8].

والأغنية الشعبية قديمة قدم وجود الإنسان، إذ كانت غذاء روحيا له، ولحنا ينبعث من وتر الحزن في قيثارة الحياة، وصدى لنوازع النفس في الأمل والتطلع للمستقبل، وبحرا تتلاطم فيه أمواج التفكير الشعبي ببساطة وعفوية، وقد ظلت عبر العصور المتعاقبة تعطي ظلال واضحة، ترسم فيها شخصية قائلها، لذلك نجد ـ أثناء ـ تحليلها في كل كلمة منها شيئا يرتبط بهذا الإنسان الذي عصرته الحياة، وجابهها بصلابة وقوة ورباطة جائش وخرج منها صامدا شامخا غير منهار، وعن معاناة صادقة لا زيف فيها ولا تعقيد [9]، وفي هذا المعنى يقول "عبد العزيز الأهواني": ((لسنا في حاجة أن نثبت من الناحية العقلية ضرورة وجود الأغاني في المجتمع الإنساني كله وإن الأغاني الشعبية قديمة العهد بين سكان المدن والبوادي، وإن الحياة الاجتماعية بمناساتها المفرحة والمحزنة، قد حتمت التعبير الجماعي الذي يستعين بالآلة الموسيقية وبالتنغيم اللفظي، فأصطنع فن يجمع بين هذين الجانبين: الموسيقى واللغة، وهو ما نصطلح على تسميته بالأغنية الشعبية))[10].

لم تلق الأغنية الشعبية اهتماما خاصا من طرف المؤرخين القدامى وبخاصة مؤرخي الموسيقى، إذ انصرف اهتمامهم إلى الغناء والموسيقى الكلاسيكية، اعتقادا منهم بأن ((الأغنية الشعبية لا تستحق منهم أي اهتمام، لا في مادتها الغنائية ولا شعريتها، ولأنها لا تمثل المستوى الأدبي والفني للفئة الحاكمة التي كان يكتب لها التاريخ في العصور الخالية))[11].

لقد خلّد الشعب حياته في أغانيه الشعبية، فلم تكن هذه الأغاني مجرد إبداعات ذاتية تحمل طابعا فنيا وإنما لوحات إبداعية تصور مختلف أوجه الحياة الاجتماعية التي تعيش فيها الجماعة الشعبية، فهي تعبير مشترك

---

[7]ـ عبد القادر نطور، الأغنية الشعبية في الجزائر، منطقة الشرق الجزائري نموذجا، أطروحة دكتوراه دولة، (مخطوط)، جامعة منتوري، قسنطينة، 2009، ص 20.

[8]ـ إبراهيم الحميدري، اثنولوجيا الفنون التقليدية، دار اللاذقية، سوريا، ط1، 1984،ص 112.

[9]ـ المرجع نفسه، ص112.

[10]ـ عبد العزيز الأواني، الزجل في الأندلس، نشر معهد الدراسات العربية العالمية، مصر، 1957، ص 03.

[11]ـ إبراهيم فاضل، في الأغنية الشعبي، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، سوريا، 1980، ص 29.

لما يخطر في قلوب الناس، فقد كانت رفيقة حياة الإنسان في بيئته، وحقله ومرعاه... فصورت بذلك روح الشعب الذي ينتمي إليه الإنسان الغول، وصارت مع الزمن تشكل إرثا وطنيا يضاف إلى هذا الإرث في كل حقبة من التاريخ ثروة جديدة، يتجسد فيها الطابع المميز لتلك الحقبة والخصائص البارزة فيها، ((فصارت باقة لتقاليد طوت الأيام منها على أشياء وأبقت على أشياء، بحيث أصبحت الأغنية الشعبية لوحة من لوحات تاريخ الشعب ومراحل تطوره))[12].

ثالثا ـ أشكال الأغاني الشعبية:

التصقت الأغنية الشعبية بالحياة الاجتماعية المغاربية، فسارت جنبا إلى جنبا مع الإنسان المغاربي حاضرة في كل مناسباته، تخفف عن ألمه في موضوع الحزن، وتزيده سعادة في مواضع الفرح، كما تكشف لنا عن واقع معاش لهذا المجتمع وأنظمته السائدة ومشاكله المختلفة، ونشير هنا إلى شكلين أساسيين من الأغاني الشعبية، هما:

1 ـ الأغاني الفردية:

تعبر المرأة عن نفسيتها الداخلية من فرح وحزن عن طريق دندنتها، ثم تنتشر بعد ذلك في الأوساط الشعبية لتغنى في المناسبات، فتصبح أغنية ترددها الجماعة، والأغنية الفردية موجودة ((منذ القدم في الهدهدات والألحان الإيقاعية للأطفال ونواح الأمهات وغناء العجائز والندب وارتجال الرثاء... كلها تستحضر جوا لا تكلف فيه))[13].

تكتسب الأغنية الشعبية الفردية عن طريق الموهبة الوراثية، تتسع بعد ذلك جموعا من النساء، ومن الأغاني الفردية هناك أغاني ترددها الأم من أجل تنويم طفلها الصغير وإسكاته، تعبر من خلالها عن تعلقها العميق به وكيف حول حياتها إلى فرح، وهناك الأغاني الدينية الخاصة بالنساء أو كما يسمى بـ "المديح"، وهي أغاني خاصة بمدح الرسول عليه الصلاة والسلام، وغالبا ما تكون مأخوذة من أغاني مشهورة للمديح الديني التي نظمها بعض شعراء الأولياء الصالحين، وهناك أيضا الموال الذي كثيرا ما يكون الغرض منه ((هو النعي على ما أصاب الحياة من تخلخل في القيم الأخلاقية من ناحية، والإشادة بالسلوك الذي يتسم بالرجولة والأصالة من ناحية أخرى))[14].

2 ـ الأغاني الجماعية:

ترددها النساء والرجال معا في شكل أغاني جماعية، تغنى حسب مواضيع ومناسبات الأغنية الشعبية وتكمن وظيفتها في الترفيه والتسلية من جهة، والإشادة بالقيم الأخلاقية والاجتماعية من جهة أخرى.

رابعا ـ مواضيع الأغاني الشعبية الجماعية:

---

[12]ـ إبراهيم الحميدري، اثنولوجيا الفنون التقليدية، ص 114.

[13]ـ بلاشير رجيس، تاريخ الأدب العربي، تر: إبراهيم الكيلاني، الدار التونسية للنشر، تونس، 1986، ج1، ص 379.

[14]ـ نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، ص 236.

تناقلت الأغنية الشعبية عن الآباء والأمهات إلى الأبناء والبنات، حملت في طياتها معاني وأفكار يتحلى بهذا المجتمع، فاختلفت وتنوعت حسب المواضيع، التي يمكن أن تقسيمها وفقا للوظيفة والمضمون إلى ثلاثة أقسام هي: الأغاني الدينية، وأغاني العمل، وأغاني الأفراح، وكل موضوع من هذه المواضيع الثلاثة يؤدي وظيفة معينة في حياة الجماعة الشعبية وبين ملامحها الخاصة بها.

1 ـ الأغاني الدينية:

يتميز هذا النوع من الأغاني بارتباطه بوصف حياة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، والإشادة بأخلاقه العليا وصفاته الخلقية والخلقية، وذكر معجزاته والشوق إلى لقائه والسفر إلى الأماكن المقدسة الإسلامية واعتراف المغني بذنوبه وتقصيره في واجباته الدينية، والرغبة في التوبة النصوح والرجوع إلى الله، فيتخذ من الابتهال والاستعانة بالله عز وجل وبالأولياء الصالحين سبيلا لذلك، ليبث المغني الشعبي نظرته ووعيه الفلسفي عبر مدائحه، متأثرا في ذلك بالثقافة الدينية المتداولة في مجتمعه، وتجدر الإشارة الى تميز هذا النوع من الأغاني الشعبية بإيقاعات موسيقية خاصة تعرف من خلالها.

2 ـ أغاني العمل:

وهي أغاني جماعية يرددها الرجال والنساء أثناء العمل، وبخاصة العمل الزراعي كمواسم الزرع والحصاد، وعادة ما تؤدى في عمليات التطوع الجماعية المعروفة محليا بـ "التويزة" كغسل الصوف وتنظيف القمح والشعير...، ويتميز هذا النوع من الغناء الشعبي بدندنات لأغاني قديمة أو تقليدية تطول مع طول العمل، و((لهذا نجد أن أغنية العمل قد تفتقد الوحدة الموضوعية))[15]، فهي غير مرتبطة بموضوع العمل، وأحيانا أغاني في شكل مدائح دينية.

تنحصر وظيفة أغاني العمل الأساسية في التسهيل والتخفيف من عناء العمل، وحث الجماعة على الاستمرار والصبر على مشاقه بإيقاع موحد متماسك، فالعمال والفلاحون والصيادون كثيرا ما يستعينون بالأغاني في أعمالهم اليومية والموسيمية، ولطول ساعات العمل ((يضطر المغني إلى أن يضيف إلى الأغنية كل ما يطرأ على ذهنه من كلام، ما دام هذا المكان صالحا لأن ينساق مع لحن الأغنية))[16]، كما أنها تؤدى بدون آلات موسيقية، تتخللها في بعض الأحيان أوامر لأجل التحفيز على العمل وكذلك تحفيز الدواب على المشي أو الدوران.

3 ـ أغاني الأفراح:

تخرج من النطاق السابق إلى نطاق الإيقاع الغنائي الراقص، الذي يثير الإحساس بالسعادة والابتهاج كما تمثل هذه الأغاني جوانب واقعية في بناء المجتمع، وهي مرتبطة بالمناسبات والأفراح، مثل: الزواج والأعياد... فلا تخلو مناسبة أو وليمة اجتماعية إلا وكانت الأغنية الشعبية حاضرة تمارس بجميع أشكالها،

---

[15] ـ المرجع نفسه، ص 231.

[16] ـ المرجع السابق، ص 231، 232.

وبالتالي أدت الدور الكبير في الحفاظ على أصالة الجماعة الشعبية المغاربية وبلورة شخصيتها المتفردة، فتتحول من التلقائية والترفيه إلى نشاط يؤكد على هوية شعوب المنطقة المغاربية ويبرهن على تاريخها وعراقتها.

وبتعدد موضوعات الأغنية الشعبية وتنوع اقتراحاتها، تظل فنا من الفنون الثقافية الشعبية المغاربية، التي تحمل العديد من المرجعيات: التاريخية والنفسية والاجتماعية...الخ

خامسا ـ خصائص الأغنية الشعبية:

1 ـ أهم ما يميز الأغنية الشعبية هو بساطة نصوصها ومعانيها وعفويتها، لأن المغني يسعى بها إلى نقل مشاعره من حب وألم وحزن وسعادة... بما يخدم غايته، وهو متأثر في ذلك بالبيئة البسيطة التي يستقي منها أفكاره وألفاظه.

2 ـ يدور محور الأغنية الشعبية حول المشاعر الإنسانية التي يتمتع بها المغنون، الذين يعدون بمثابة الناطق الرسمي باسم جماعتهم الشعبية، فنجده عاشقا حينا، أو كنة تعاني ضغط الحماة القاسية عليها أو تتمتع بعطفها ورحمتها حينا، كما نجده شابا بلغ رشده يسعى إلى العثور على شريكة حياته.

3 ـ الأغنية الشعبية جماعية، حتى وإن كانت تعود إلى فرد معين، فهي دائما محل تغيير سواء بالزيادة أو الحذف.

4 ـ تجسد الأغنية الشعبية للعقل الجماعي للجماعة الشعبية وميولها الفكرية والأخلاقية والعاطفية...الخ

5 ـ الأغنية الشعبية ذات طبيعة ذاتية، إذ تصدر عن وجدان الإنسان الشعبي، معبرة عن آماله وأحلامه، ثم تتناقلها الجماعة الشعبية بعد أن تستوعبها فتصبح ملك لها.

6 ـ تمتاز الأغنية الشعبية بتوظيف اللهجات المحلية، فنجد لكل منطقة أغاني شعبية خاصة بها، وحتى في البلد الواحد نجد أيضا ما يميز المنطقة عن الأخرى، وهذا راجع لاختلاف العادات والتقاليد وكذا الموروث الثقافي والديني فيما بينها.

7 ـ ارتباط أداء الأغاني الشعبية بارتداء شكل خاص من اللباس يكون في الغالب اللباس المحلي للجهة التي ينتمي إليها المغني أو الفرقة الشعبية، أو لباس قديم، تناساه الناس مع التطور الذي يعيشونه حاليا، فيريد المغني أن يبين عراقة فنه من خلال ارتدائه لهذا اللباس.

خاتمة:

وفي الأخير نقول: بأن الأغنية الشعبية المغاربية متعددة المضامين، حيث وصفت مختلف جوانب حياة الجماعة الشعبية المغاربية، وصورت الواقع الذي تعيش فيه أحسن تصوير، كما أنها تتميز بصفة الشمولية لحنا وإيقاعا عبر ربوع البلدان المغاربية، وتكاد تتوحد لولا بعض الاختلاف في البعدين الصوتي والإيقاعي، فالمواويل التونسية مثلا تشبه إلى حد بعيد طبوع الأغنية الشعبية الأوراسية، كما توجد أوجه تشابه متعددة بين الأغنية الشعبية بالغرب الجزائري ونظيرتها بالمغرب الأقصى، فالأغنية الشعبية بصفة عامة تتميز بالروح الوطنية وتابعت الثورات الشعبية المختلفة في بلدان المغرب العربي، وسجلت أحداثها، ووقفت ضد الظلم والاستبداد بكل أساليبه وأشكاله.